المقـــدمات

المقدمة الأولى

فى مبادىء عـــلم الصرف

تعريف العلم — شرح التعريف —
موضوعه — فائدته — واضعه —

التعريف :

لـكلمتى « الصرف » و « التصريف » معنيان : أحدهما لغوى ، وثانيهما اصطلاحى .

فأما معناهما اللغوى فإنهما يُطْلقان فى لسان العرب على معانٍ : منها التَّحْوِيلُ والتغيير ، ومن ذلك قالوا : تصريف الرياح ، وتصريف الأمور ، وتصريف الآيات ، وتصريف الخَيْـل ، وتصريف المياه . وقالوا : صَرَفْتُ فلاناً عن وَجْهه ، وصَرَفْتُ الصِّبيان ، وصَرَفَ اللهُ عنك الأذى . كل ذلك يُراد به التحويلُ من وَجْه إلى وَجْهٍ ومن حالٍ إلى حالٍ ، قال الله تعالى : (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)[1] ، وقال سبحانه : (وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)[2] .

وأما معناهما الاصطلاحى فإنهما يُطْلَقَانِ[3] فى لسان علماء العربية على « العلم

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة الأنعام

(٢) من الآية ١٦٤ من سورة البقرة

(٣) هذا اصطلاح المتأخرين من علماء العربية ، يجعلون الصرف والتصريف لفظين مترادفين معناهما واحد هو ماذكرناه ، فأما المتقدمون منهم فقد كانوا يطلقون كل لفظ منهما على =

الذى تُعرف به كيفيةُ صِياغةِ الأبنية العربية ، وأحوالُ هذه الأبنية التى ليست إعراباً ولا بناء » .

والأبنيةُ : جمع بناء ، والمرادُ بالبِناء هيئةالكلمة التى يمكن أن يشاركها فيها غَيْرُها ، وهذه الهيئة عبارة عن عدد حروف الكلمة ، وترتيبها ، وحركاتها المعيَّنَة وسكونها ، مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية ، كُلٌّ فى موضعه : فرَجُلٌ ـ مثلا ـ على هيئةٍ وصفةٍ يمكن أن يشاركه فيها عَضُدٌ ، وهى كونه على ثلاثة أحرف أولُها مفتوح وثانيها مضمومٌ ، وكما يقال لهذه الهيئة بناء يقال لها : بِنْيَة ، وصِيغَة ، ووَزْن ، وزِنَة .

وكيفيةُ صياغة الأبنية : ما يُذْكر فى مسائل العلم من طريقة أَخْذِ المضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وغيرها من المصدر ، وطريقة التصغير والنسب والتثنية والجمع ، ونحو ذلك .

والمراد بأحوالها التى ليست إعراباً ولا بناء : الابتداء ، والإمالةُ ، وتخفيف الهمزة ، والإعلالُ ، والإبدالُ ، والحذفُ ، والإدغامُ ، وكونُ حروفها كلها أصولا ، أو مشتملة على بعض حروف الزيادة ، ونحو ذلك .

الموضوع :

وموضوع علم الصرف المفرداتُ العربيةُ ، من حيث البحثُ عن كيفية صياغتها لإفادة المعانى ، أو من حيث البحث عن أحوالها العارضة لها من صحة و إعلال ونحوهما .

والمراد بالمفردات العربية: الاسمُ المتمكنُ ،والفعلُ المتصرفُ ، دون ماعداهما ؛ فالحرف بجميع أنواعه ، والاسم المبنى ، والأفعال الجامدة ، لا يجرى البحثُ عنها فى علم الصرف.

= معنى ، كانوا يطلقون لفظ «الصرف» على ذلك المعنى الذى ذكرناه فى الأصل ، ويطلقون لفظ « التصريف » على « أخذك من كلمة مابناء لم تبنه العرب منها على وزن مابنته العرب من غيرها ، ثم تعمل فى البناء الذى أخذته مايقتضيه قياس كلامهم » مثال ذلك أن تأخذ من الضرب على مثال سفرجل فتقول : ضربرب ، وأن تبنى من الوأى على مثال قفل فتقول : وؤى ، وهذا النوع من التحويل هو باب التمرين الذى وضعه الصرفيون لاختبار الملكات وتثبيت القواعد ؛ فالتصريف على هذا جزء من الصرف .

فإن قلت : فإنَّ « ذَا » و « تَا » من أسماء الإشارة ، و «الذى» و « التى » من الأسماء الموصولة ، وأسماءُ الإشارة والأسماءُ الموصولة من المبنيات ، وقد رأينا العرب ثَنَّتْ هذه الأسماء فقالت « ذَانِ » أو « ذَيْنِ » و « تَانِ » أو « تَيْنِ » و « اللَّذَانِ » أو « اللَّذَيْنِ » و « اللَّتَانِ » أو « اللَّتَيْنِ » وصَغَّرَتْهَا فقالت « ذَيَّا » و « تَيَّا » و « اللَّذَيَّا » و « اللَّتَيَّا » وقد عرفنا أن التثنية والتصغير ضربانِ من تصريفَ الأسماء، فكيف يصح قولكم : إن الأسماء المبنية لا يجرى البحث عنها فى علم الصرف ؟

فالجواب عن ذلك من وجهين :

الأول : أنا لا نُسلم أن ما ذكرتَ تَثْنيةٌ أو تصغيرٌ حقيقةً ؛ إذ لو كانت تثنية حقيقة لقيل « ذَوَانِ » أو « ذَوَيْنِ » ولقيل « تَوَانِ » أو « تَوَيْنِ » ولقيل « اللَّذِيَانِ » أو « اللَّذِيَيْنِ » ولقيل « اللَّتِيَانِ » أو « اللَّتِيَيْنِ » بقلب ألف « ذا » و « تا » واواً ، كما تقلب ألف «العصا» فيقال «العَصَوَان» أو « العَصَوَيْنِ » وبقاء ياء « الذى » و « التى » كما تبقى ياء «القاضى» عند تثنيته فيقال « القَاضِيَانِ » أو « القَاضِيَيْنِ » ولو كان « اللَّذَيَّا » و « اللَّتَيَّا » و « ذَيَّا » و « تَيَّا » تصغيرا حقيقة لانضم أولُها كما ينضم أولُ كل اسمٍ يُرَاد تصغيره ، فلما كان أمر هذه الألفاظ مخالفاً للسَّنَن الذى يجرى عليه كلامُ العرب فى التثنية والتصغير علمنا أنها صِيَغٌ وُضعت من أول الأمر للدلالة على الاثنين أو على المصغَّر .

والوجه الثانى : أنا إن سَلَّمنا أن هذه الألفَاظَ تثنيةٌ وتصغيرٌ فإنها ألفاظٌ شاذة من حيثُ الإقدامُ عليها ومن حيث صورتُها ، ونحن إنما نبين ما يُبْحَث فى علم الصرف عنه بحثاً قياسيًّا جارياً على المَهْيَع المعروف والسَّنَنِ المُطرد فى عامة كلام العرب .

فائدة علم الصرف :

ومتى دَرَسْتَ علم الصرف أفَدْتَ عصمةً تمنعك من الخطأ فى الكلمات العربية ،

وتَقِيكَ من اللحن فى ضبط صيغها ، وتُيَسِّر لك تلوينَ الخطاب ، وتساعدك على معرفة الأصلىّ من حروف الكلمات والزائد .

والحقُّ أن علم الصرف من أجلِّ العلوم العربية موضوعا ، وأعظمها خَطَراً ، وأحَقِّها بأن نُعْنَى به ، وننكَبَّ على دراسته ، ولا نَدَّخِرَ وُسْعاً فى التزوُّد منه ، ذلك بأنه يدخل فى الصَّميم من الألفاظ العربية ، ويَجْرِى منها مجرى المعيار والميزان ، وعلى معرفته وَحْدَه المعوَّلُ فى ضَبْط الصِّيَغِ ومعرفة تصغيرها والنِّسبة إليها ، وبه وحده يقف المتأملُ فيه على ما يعترى الكلمَ من إعلالٍ أو إبدالٍ أو إدغامٍ ، ومنه وحده يعلم ما يَطَّرِد فى العربية وما يقلُّ وما يندُر وما يشذُّ من الجموع والمصادر والمشتقات ، وبمُرَاعاة قواعده تخلو مفردات الكلام من مخالفة القياس التى تُخِلُّ بالفصاحة وتَبْطُل معها بلاغةُ المتكلمين .

واضع علم الصرف :

كان العلماء فى أول العهد بالتصنيف والكلامِ عن العربية يُدْرِجُون مباحثَ التصريف فى ثنايا مَبَاحِثِهم عن مسائل اللسان العربى ؛ لا يُمَيِّزُون بين مبحثٍ ومبحثٍ ، ولا يُعْنَوْن باتِّساق المباحث وأَخْذِ بعضها بحُجَز بعضٍ ، ذلك بأن موضوعات العلوم لم تكن يومئذٍ متمايزةً محدودةً ، وكان العالمُ بالعربية حينذاك لُغَوِيًّا نحويًّا أخْبَارِيًّا راوية ، بَيْنَا هو يتحدث فى شرح مادة لغوية إذا هو ينتقل إلى شرح يوم من أيام العرب ، ويروى ما قيل فيه من الشعر ، ثم ينتقل من ذلك إلى تصريف كلمة من المفردات التى جرى ذكرها ، ونحو ذلك ، وتلاميذُه يكتبون عنه أو يستمعون له استماعَ الواعِى الذى يحفظ كلَّ ما يقال .

ثم تمايزت موضوعات العلوم بعضَ التمايزِ ، وصار علماء العربية أنفسُهم طوائفَ ، فهذا نحوى ، وهذا لغوى ، وهذا أخبارى ، وهذا نحوى لغوى ، وهذا لغوى أخبارى ، وهذا نحوى لغوى أخبارى ، وكان النحوىُّ يتكلم يومئذٍ عن أحوال

الكلام العربى فى حالَىْ إفراده وتركيبه ، وكانوا يُعَرِّفُونَ النحو بأنه « علم يبحث عن أحوال الكلم العربى إفرادا وتركيبا » فكانت مباحث الصرف جُزْءًا من مباحث النحو ، وفى هذا الوقت ظهر كتابُ سيبويه الذى بَهَرَ الألْبَاب ، وعَنَتْ له فحولُ العلماء ، فقد جمع فيه مسائل العربية متناسقة متآلفة ، واستشهد لما ذكَرَ من القواعد أوْفى استشهادٍ ، وعَلَّلَ لها أبْرَعَ تعليلٍ ، وجمع ما كان متفرقاً فى صدور العلماء وبُطون صغار الرسائل ، وقد جاء فيه ـ مع ذلك ـ شىء ليس بالقليل من التكرار والتفريق .

ثم كان بعد ذلك أنْ قَوِىَ التميزُ بين الموضوعات العلمية ، جَرْيا مع سنن الترقى ؛ فأصبح للمفردات العربية علم يبحث عن المعانى التى وُضعت لها هذه الألفاظُ ووسَمُوه بعلم اللغة ، وعلمٌ آخر يبحث عن أحوالها التى ليست بإعراب ولا بناء وسَمَّوْهُ « علم الصرف » ومن ذلك الحين تميز علم الصرف عن علوم العربية عامة ، وعن علم النحو خاصة ، وصار له مَبَاحِثُ لا يشركه فيها غيره ، وعُلَمَاء يتفرّدون بدراسته ، ومُصَنَّفات يستقلّ بها وتستقلّ به .

وقد اشتهر عند الباحثين أن واضع علم الصرف هو أبو مسلم مُعَاذ[1] الْهَرَّاء ، أحَدُ رءوس العلماء فى الكوفة ومُتَقَدِّميهم .

---

(١) هو أبو مسلم ـ وقيل : أبو على ـ معاذ بن مسلم الهراء ـ نسبة إلى بيع الثياب الهروية ـ وهو من موالى محمد بن كعب القرظى ، ولد أيام عبد الملك بن مروان ، ونشأ بالكوفة ، وكان مقرئاً ، وله روايات فى القراءات ، وصنف فى النحو ، وأملى فيه وفى الصرف ، ولكن الزمان لم يحفظ لنا من مصنفاته شيئاً ، وكان شيعياً مصادقاً للكميت بن زيد ، وهو عم محمد بن سارة الرؤاسى أول من وضع نحو الكوفيين .

والذى نرجحه أن معاذا إنما كان يتكلم من التصريف فى صياغة المشتقات وكيفياتها ، وأنه كان يكثر من ذلك ويستطرفه ، ولم يكن الناس يعرفونه ، ولم يكن يتكلم فى غير هذا من مباحث التصريف ، وكان غرضه التدريب على قواعد الإعلال والإدغام وما أشبه ذلك ، وترى فى الحادث الذى نسوقه إليك مرشدا ودليلا على ماندعيه ؛ فقد حدثوا أن أبا مسلم مؤدب عبد الملك بن مروان — وهو رجل كان قد عالج النحو ونظر فيه — =

وهذا الكلام على إطلاقه غير مستقيم ؛ فقد كانت مسائل هذا العلم تُدْرَس من قَبْل مُعَاذ : دُرست مع مسائل العربية بوجه عام ، ودُرست مع مسائل النحو بوجه خاص . والذى يمكن أن تطمئن النفسُ إليه أن مُعَاذاً هو أول مَنْ أفْرَدَ مسائل الصرف بالبحث أو التأليف ، وهو الذى بدأ التكلم فيه مستقلاً عن فروع اللغة العربية ، وأنه أكثر من مسائل التمرين التى كان المتقدمون يسمونها التصريف ، وأن العلماء مِنْ بعده تَرَسَّمُوا خُطاه ، وتَقَيَّلُوا مَنْهجه ، واتبعوا سبيله ، واقتفَوْا أثره ، وهم — مع هذا — يَضَعُون الضوابط والقُيُودَ ، ويستدرك اللاحقُ منهم على السابق فيزيد قيداً أو يُهْمل مُقَيِّدا ، حتى تَمَّ نُضْج هذا العلم ، واستقامت مباحِثُه ، وعلى هذا المعنى — دُونَ ماعداه — يصح قولُهم : إن واضع هذا العلم هو مُعَاذ الْهَرَّاء .

= قد جلس إلى معاذ الهراء ، فسمعه يقول لرجل : كيف تقول من « تؤزهم أزا » على مثال يافاعل افعل ؟ فقال أبو مسلم :

قد كان أخذهم فى النحو يعجبنى حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاما لست أفهمه كأنه زجل الغربان والبوم
تركت نحوهم ، والله يعصمنى من التعجم فى تلك الجراثيم

فأجابه معاذ الهراء على ذلك بقوله :

عالجتها أمرد حتى إذا شبت ولم تحسن أباجادها
سميت من يعرفها جاهلا يصدرها من بعد إيرادها
سهل منها كل مستصعب طود على أقران أطوادها

ومن تلاميذ معاذ الهراء — وابن أخيه محمد الرؤاسى — إمام الكوفيين فى النحو واللغة : أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله الكسائى ذو المنزلة الرفيعة عند أمير المؤمنين الرشيد ومؤدب ولده أمير المؤمنين الأمين .

وقد عمر معاذ طويلا حتى قال فيه أبو السرى سهل بن أبى غالب الخزرجى :

قل لمعاذ إن مررت به : قد ضج من طول عمرك الأبد
يابكر حواء ، كم تعيش ؟ وكم تسحب ذيل الحياة يالبد؟
فارحل ودعنا ؛ فإن غايتك الموت وإن شد ركنك الجمد